الشعر العربي والانتفاضة الأولى

د. صالح أبو اصبع

عام مضى وعام يأتي، وجذوة الانتفاضة تشتعل، وقودها ليست حجارة ولكنها قلوب تنبض بحب الوطن، وأياد تلتقف الحجر تلو الحجر لتصنع لنا فجراً، منذ أكثر من عامين أي قبل أن تصبح الانتفاضة صوراً تنقلها لنا وكالات الأنباء وكلمات يكتب عنها الصحفيون، وأغان يتغنى بها الشعراء ... كانت قضيتنا قد أصبحت في ذيل الاهتمامات عربياً وعالمياً.. وفجأة هكذا يتوهم البعض، تأتي الانتفاضة لتصنع لنا فجراً جديداً يضيء عالمنا بالأمل.. وقبل هذا لم يدرك المتوهمون أن العطاء الفلسطيني ظل مستمراً... وأن الحلم الفلسطيني أكبر من أي هزيمة، وأن الأمل بالعودة غذاء روحي للفلسطيني حيث يكون في أسر الاحتلال أو في غربته عن وطنه... ومع هذا الأمل تظل تنمو إرادة للصمود لا ترهبها الدبابات ولا الطائرات ولا القنابل العنقودية ولا الفسفورية. وفي درب عودته، يقدم آلاف الشعراء وعشرات الآلاف من المعتقلين وآلافاً مؤلفة من المعاقين.. وفي درب عودته يخلق إنسان عربي جديد.. إنساناً تفجرت طاقات إبداعاته في مواجهة المحتل. ويحمل مقلاعه ليواجه به الجندي المدجج بالسلاح، ويقذف البطاطا المحشوة بالمسامير ويدلق الزيت على الأسفلت لتنزلق سيارات المحتلين.. إنساناً يبدع النظال.. وإنساناً يبدع في تفاعله مع الحدث.. في أتون حربه مع الأعداء تبرز أروع الصور للتكافل الاجتماعي وتبرز كذلك أعظم الصور في الاعتماد على الذات ...

تفقد الأم ولدها ولكنك تراها توضع إشارة النصر ويصاب الشاب إصابة بليغة وتظل تلك الشارة من بين ضماداته... وتقف الفتاة بصلابة وكبرياء في وجه الجندي الإسرائيلي.. تلك صور نشاهدها، ونسمع عنها. ويمتلك البعض منا جرأة الانفعال، وبعض منا جرأة التفاعل، ولكن ذلك كله ونحن بعيدون عن ساحة العطاء.

في غمار الانتفاضة دنست المقدسات... وأحرقت المساجد... ولكنها ظلت دوماً قلعة الانطلاق للمواجهة.. وفي حماة المواجهة ينمو جيل من الأطفال لا يعرف الخوف. جيل سمعنا عن صور من بطولاته قصص كثيرة مذهلة، جيل تشعبط سور الخوف وانقض كالصقر بمنقاره كف تسلح بالصخر رمى فتلاشى الاحتلال وما رأى على قدمه غير تاج من الزهر تراجع كان الغدر ينسج حوله كمين يخلط لليل بالفجر ويسأله الجندي:

- ما اسمك؟

خالد

- وعمرك ؟

سبع

- من رماك ولم تدر

محمد

- من هذا؟

أخي

- أين يختفي ؟

على عرشه يختال بالمجد والفخر

- تعال

وجروا الطفل عبر أزقة مرصعة بالحقد يلسع كالجمر

هنا بيتنا

دقوا على الباب

من؟

أنا

وشرعت الأبواب في ليلة القدر

وغرد كالعصفور طفل ثلاثة

(ظلبتهم يا خالد البل والبحل)

أجل

وتلاشى الأقحوان

وتمتعت شفاه جنود لامست غيمة الدعر

نحارب جيل الصخر والموت عنده

حياة

لقد تهنا بعيداً عن النصر **(الشاعر صخر أبو نزار)**

هذه القصة - القصيدة لعل البعض سمعها أو قرأها - قبل أن تسمعوها شعراً، إن قصصاً بطولية تجري في الأرض المحتلة يعجز المرء عن متابعتها، أبطالها أطفال وشباب وشيوخ/ نساء ورجال كلهم دخلوا أتون الثورة الشاملة التي تعصف بالمحتل في أرضنا السليبة.

ماذا كان الوضع قبل الانتفاضة ؟

في معرض الحديث عن الأدب يصبح من الصعب على المرء تحاشي الحديث عن الظروف التي أنتجته.. ويكفي هنا أن نشير إلى بعض العلامات في التاريخ العربي الحديث جداً وأحداث وقعت وتابعناها وهي تحفر عميقاً في الساحة العربية آثارها لتتسرب إلى أعماق الوجدان العربي وذلك بعد حرب أكتوبر 1973، وأذكر هنا بدون تحليل تاريخي:

1] مفاوضات كيلومتر (101) بعد حرب أكتوبر مباشرة. ومفاوضات ميناء هاوس

2] زيارة السادات للقدس وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد.

3] يوم الأرض في المثلث والجليل.

4] انتفاضة عام 1977 في الأرض المحتلة.

5] إجتياحات ومعارك إسرائيلية لجنوب لبنان.

6] الحرب الإسرائيلية - الفلسطينية عام 1982 والصمود الأسطوري.

7] اقتتال الأخوة في لبنان/ لبنانياً - فلسطينياً وفلسطينياً - لبنانياً/ فلسطينياً - فلسطينياً.

8] الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان.

9] العمليات الإستشهادية في جنوب لبنان.

10] الحرب العراقية الإيرانية.

11] أزمة النفط وانعكاساتها على الاقتصاد العربي.

12] أحداث اليمن الجنوبي.

13] تورط النميري بقضية هجرة الفلاشا.

14] مشاكل جنوب السودان وكوارثه الطبيعية.

15] مجازر صبرا وشاتيلا وتل الزعتر.

16] حرب الصحراء المغربية.

17] الحرب الليبية التشادية.

18] ضرب المفاعل النووي العراقي.

19] الغارة الأمريكية على ليبيا.

20] الغارة الإسرائيلية على تونس واغتيال أبو جهاد.

هذه أحداث يمكن للمرء أن يقف أمامها طويلاً ليرى كيف تسلل اليأس معها إلى النفوس، وبات الإنسان العربي مهزوماً في وطنه، وبات يقبل بما كان لا يقبل به، وأصبح غير قادر على المشاركة أو التعبير عن نفسه... وعلى سبيل المثال حينما اجتاحت قوات الغزو الإسرائيلي لبنان ووقفت الأسابيع وهي تحاصر بيروت.. لم يكن تفاعل الشارع العربي على مستوى الحديث.. لقد أصبح الإنسان مهيضاً ومحبطاً وباللهجة الدارجة كان مكسور الخاطر...

وكان الأدب في تلك الفترة صدى لهذه المرحلة، وكان صوت الشعر خير تعبير عن إدانة النفس إلى درجة تصل إلى حالة الماسوكية.

وكان الشعراء حينما تبرق بارقة أمل من خلال تضحية فردية، مثل العمليات الاستشهادية تشرق لديهم روح الأمل، ولكنها في الوقت ذاته تكون فرصة لجلد النفس لواقعنا العربي المتخاذل.

ولكن على الرغم من ذلك فإن المؤمنين بعظمة الأمة العربية، والمؤمنين بأن روح الأمة يمكن أن تسبت ولكنها لا يمكن أن تخفت، ظلت تؤمن أن حالة التردي لها نهاية. لذا وحيثما كان هناك حديث أو موقف يستدعي أن يكون حضور القضية الفلسطينية. فإنه كان هناك دوماً عربان:

- العرب الذين يرون أن فلسطين لهم وهي قضيتهم وهم بذلك فلسطينيون بالانتماء بغض النظر عن مولدهم.. ففلسطين ليست مساحة جغرافيا، إنها مساحة انتماء وتصغر لأولئك الضعفاء لتصبح فلسطين هي تلك المساحة المحدودة جغرافياً، وتكبر بالنسبة لأولئك المتفائلين الذين ينظرون إلى فلسطين لتصبح هي قضية خارطتها من المحيط إلى الخليج.

- العرب الآخرون هم الذين يرون أن فلسطين هي قضية لأشقاء تحتاج إلى الدعم والتأييد... وهكذا يحاولون أن يجعلوا دورهم ليس أكثر من تأييد لقطر آخر محتل... وهكذا يعملون على الفصل بين أعضاء الجسد الواحد وهؤلاء هم الذين يقفون ضد المستقبل والذين يرون فلسطين هي المساحة المحدودة جغرافياً.

ومن خلال هذا أيضاً يمكن للمرء أن يتابع الأدب العربي في أشكال تعبيره عن القضية من هاتين الزاويتين:

الزاوية الأولى: لكتاب تصبح فلسطين همهم وقضيتهم ينفعلون ويتفاعلون بها لأنها خارطة تمتد على جسد الوطن العربي من الماء إلى الماء... فتنسل إلى وجدانهم وتفكيرهم.. ويدركون معها أن وجودهم ذاته مهدد بوجود إسرائيل مهما يدنون جغرافياً أو ينأون عنها ومهما امتد الزمن أو قصر.

الزاوية الثانية: لكتاب تصبح فلسطين هي مادة للكتابة فهم ينفعلون ويتضامنون ويكتبون بالمناسبات لتصبح كتاباتهم مثل تلك التي كتبت للتضامن مع الشعوب الصديقة في كفاحها ضد الاستعمار.

لقد فجرت القصيدة معركة ... نعم ولا أبالغ إذا قلت أنها فعلت ذلك...

إن قصيدة واحدة مثل قصيدة محمود درويش "عابرون في كلام عابر" كانت كفيلة بأن تثير ضجة عالمية تكتب عنها الصحف الفرنسية والأمريكية وتقتحم أسوار الكنيست ليقف شامير في الكنيست منها لا على محمود درويش بالشتائم لأن هذا الشاعر يحب وطنه وأرضه - حسب تعبير أحمد دحبور - هذه القصيدة التي وصفها الكاتب الفلسطيني سلمان الناطور من عرب الأرض المحتلة عام 1948 إنها قصيدة كتبها شاعر فلسطيني كبير يمكن أن تكون نشيداً وطنياً

لكل قوى السلام في العالم، وما يمنحها هويتها الفلسطينية هو انتماء كاتبها والمرحلة التاريخية التي كتبت فيها... ويقول أنها قصيدة ضد العابرين في الكلام العابر وهم موجودون في أزمان عدة وأماكن عدة والشعب الفلسطيني انتكب بهم مثلما انتكبت شعوب أخرى فلماذا ثارت ثائرة الإسرائيليين.

في هذه القصيدة يقول محمد درويش:

أيها المارون بين الكلمات العابرة

كدسوا أوهامكم في حفرة مهجورة، وانصرفوا

وأعيدوا عقرب الوقت إلى شرعية العجل المقدس

أو إلى توقيت موسيقى المسدس

فلنا ما ليس يرضيكم هنا، فانصرفوا

ولنا ما ليس فيكم: وطن ينزف شعباً ينزف

وطناً يصلح للنسيان أو للذاكرة

أيها المارون بين الكلمات العابرة

آن أن تنصرفوا

ولتموتوا شئتم، ولكن لا تموتوا بيننا

فلنا في أرضنا ما نعمل

ولنا الماضي هنا

ولنا صوت الحياة الأول

ولنا الحاضر، والحاضر، والمستقبل

ولنا الدنيا هنا... والآخرة

فاخرجوا من أرضنا

من برنا..من بحرنا

من قمحنا... من ملحنا.. جرحنا

من كل شيء، واخرجوا

من ذكريات الذاكرة

أيها المارون بين الكلمات العابرة.

إن ما أثارته هذه القصيدة تجسد لنا أهمية الكلمة المقاتلة.. ولعل هذا ما تدركه قوى الاحتلال جيداً.. ولم يكن غريباً. أن يبلغ مجموع الصحفيين المبعدين أو المعتقلين في الأراضي المحتلة 54 صحفياً. وليس غريباً أن الأعداء ترصدوا كتابنا وأدباؤنا وشعرائنا فسقط منهم من سقط شهيداً، ومنهم من أصيب برسائل الغدر الملغومة.

وهل لنا أن نتذكر كمال ناصر، وغسان كنفاني، وماجد أبو شرار، وأنيس صايغ.

إن هذه الدراسة لا تتسع لدراسة فنية لأدب الانتفاضة وأخالني لا أجافي الحقيقة إذا قلت أن دراسة فنية لأدب الانتفاضة سوف تستطيع أن تفرز لنا نوعين من الإنتاج:

أ- أدب الانتفاضة والذي يعبر عن تفاعل مع الحدث عاطفياً وفنياً.

ب- أدب عن الانتفاضة والذي يعبر عن انفعال بالحدث وهو أقرب إلى أدب المناسبات.

وفي محاولة رصد سريعة ولا تدعي الشمول فإن معظم ما أنتج في الأدب يندرج تحت الصنف الثاني وهو يمكن أن نسميه بأدب عن الانتفاضة.

إن أكثر أشكال الأدب التي أخذت بروزاً ملفتاً للانتباه في معالجة موضوع الانتفاضة تقع تحت شكلين فنيين: أولهما الشعر وثانيهما المقالة الفنية.

ولعل لهذا ما يبرره، فالشعر هو وسيلة تعبير عن الانفعالات وهو وسيلة كذلك لتفريغ الشحنات العاطفية للمرء.

وأما المقالة الفنية فهي كذلك قريبة من الشعر وتتيح للمرء تفريغ شحناته الانفعالية ومواكبة الأحداث التي تجري حول الكاتب.

ولكن الأشكال الفنية الأخرى مثل القصة والرواية والمسرحية - وعلى الرغم من أن عناصرها لا تخلو من العاطفة - إلا أن أشكالها الفنية تحتاج إلى زمن فيه ينفعل المرء ويتفاعل وتنضج معه الفكرة لتأخذ قالبها الفني... ولعل هذا ما يفسر لنا أننا نجد بعضاً يسيراً من القصص القصيرة المنشورة في الصحف ولكن لا نجد أعمالاً روائية أو مسرحية تعالج الانتفاضة.

في مجال المقالة كتب محمود درويش:

"إن وعي العالم يتساءل عن الدولة الفلسطينية. لقد تغير هذا الوعي. وصحا الضمير الغربي على صورة جديدة للفلسطيني، اكتشف أن الشعب الفلسطيني موجود. وها هي صورة الولد الفلسطيني، على شاشة التلفزيون، يطارد الجندي الإسرائيلي بحجر، تتحول إلى مشهد يومي يثير الإعجاب، ولا شيء يدعو إلى الالتباس شعب محتل يقاوم الاحتلال على أرضه...

لقد تغير وعي العالم، وصحا الضمير الغربي على صورة جديدة للإسرائيلي، إنه مدجج بالسلاح بالفولاذ وبالغاز المسيل للدموع وللأجنحة. إنه يقتل الأطفال. يدفن الأحياء بالبولدوزر

يكسر عظام الناس.. يغتال، ينسف سفينة تعود عودة سلمية ورمزية، إلى حيفا ليبعد المواطنين عن وطنهم. إنه جلف صلب مغرور وابتزازي".

لقد كانت المقالة مجالاً رحباً للكتاب لوصف الانتفاضة، ووصف عسف العدو، وتشخيص الواقع العربي المتعاون، وتجسيد للأمل في الانتصار ويكتب فوازطرابلسي عن الانتفاضة ويقول:

"الحجر. اللحم الحي الدم. المحرومين، تكنولوجيا المعدمين. ثالوث يوقظ فيها شعلة الإيمان. مرات ينتظر البشر أن يمن عليهم الإله بمعجزة، ومرة في العمر يصنع البشر معجزاتهم بأنفسهم، طوبى لمعجزة الشعب المقاوم. كان علينا أن لا نكون من القوم المشككين. إن الدم المنتصر على السيف. واللحم الحي على الدبابات الحجر على من حجر.

هي عودة الروح. تفاجئنا أمتنا، يفاجئنا شعبنا ونحن على أهبة ارتكاب الجرم المشهود، فقد كدنا أن نستسلم للزمن الرديء... هي عودة الروح... وهكذا هي الانتفاضات.. تعدي نوابض العملية التاريخية وقد ظلت طويلاً منتشرة عاصية تختزل المراحل. تكشف الوحي في لحظات إشراق نادرة".

وأما عبداللطيف اللعبي الكاتب المغربي فإنه يكتب عن الأمل الذي صنعه أطفال الانتفاضة فيقول:

"ثم كان أن انطلقت الحجارة الأولى، قالوا بل ذكرني الأطفال بالطير الأبابيل وبقصة فناء القبائل والمدن الفاجرة. لا شيء مطلق.. ها أنا أخرج من زنزانتي العتيقة لأحيي خطاف الربيع الدفين. شكراً أطفال النجدة. ممنون جداً. ربما أوقف إضرابي لأجلكم لأجلكم فقط".

لن نسير بعيداً في اقتباس ما كتبه الكتّاب العرب في مقالاتهم عن الانتفاضة والتي بلا شك ملأت الصحف المحلية والصحف العربية.

وإذا انتقلنا إلى الشعر فإننا سنجد أن التعبير يأخذ شكلين أولهما التعبير، فنحن نعبر أن أنفسنا ومشاعرنا وما يعتمل لدينا من أحاسيس وأفكار... وقد يكون ذلك بالكلمة بالإشارة بالضحكة أو بالدمعة ومثل هذا كثير ما نجده فيما نقره الآن من خواطر وقصائد وقصص.. إنها تعبير عن الذات، وهي إبداعات لا تزيد عن كونها حوار مع الذات يخلص الذات ويطهرها إن جاز لنا استخدام المصطلح الأرسطي.

وأما شكل التعبير الثاني فهو تعبير تواصلي، فيه تكون الرسالة الإبداعية رسالة دعوة إلى مشاركة وتفاعل وانفصال، هي عملية إتصالية كاملة.. تدعو إلى اتخاذ موقف.

النوع الأول: ينسحب عليه ما يمكن أن نسميه بأدب عن الانتفاضة مهما اختلف شكله الفني.

النوع الثاني: هو أدب الانتفاضة...

والفارق بينهما فارق نوعي ليس في العاطفة فحسب وإنما في أسلوب التعبير أيضاً، وهو أيضاً فارق كمي ليس من حيث نضج للتجربة فحسب، وإنما في قدرتها على توصيل رسالتها إلى الجمهور.

الراصد لما كتب عن الانتفاضة وخاصة في مجال الشعر سيجد النوعين جنباً إلى جنب، ولكنه سيجد أن النوع الأول، ومن ناحية كمية يكاد يغمر مساحة النتاجات التي نقرأها.

وعلى الرغم من أننا نميز بين هذين النوعين من ناحية فنية إلا أننا لن نقتصر في اقتباساتنا على نوع واحد منهما.

لقد انفعل وتفاعل الشعراء مع الانتفاضة، وأدى هذا إلى عدد كبير من النتاجات الشعرية، وهذه النتاجات تتراوح بين قصائد لشعراء كبار يحتلون موقفهم في الساحة الشعرية العربية، وبين شعراء آخرين أقل شهرة أو شعراء مغمورين أو حتى من المواهب الشابة والأصوات الجديدة...

إن اقتباساتنا لا علاقة لها إذن بالمركز الأدبي للشاعر بمقدار ما لها علاقة بالتعبير عن محاور أساسية عبر عنها شعر الانتفاضة أو الشعر الذي كتب عن الانتفاضة.

وتتمثل أهم المحاور التي تم التعبير عنها في هذا الشعر ما يلي:

أ- تمجيد الحجر.

ب- تمجيد بطولة الأطفال.

جـ- إدانة الموقف العربي وصمت الشارع العربي.

د- التعبير عن الأمل بالانتصار والتحرير.

إن هذه المحاور ليست شاملة ويمكن لدارس آخر أن يضيف محاور أخرى.

أولاً: تمجيد الحجر:

لاشك أن الانتفاضة أخذت بعدها من خلال بطولة الكف العاري الذي يواجه آلة الحرب الصهيونية ... هذا الكف الذي لم يجد سوى الحجر سلاحاً يمتشقه في مواجهة الغازي وأطلق البعض على ثورة شعبنا ثورة الحجارة...

ونقرأ قصائد عديدة تحمل عناوين مجد الحجر، ثورة الحجر، رسالة الحجر إلى البندقية، ما نكتبه تلغيه الحجارة، طوبى لأطفال الحجارة، نطق البحر/ رسالة أطفال الحجارة، إلى عرب الشتات/ قصيدة الحجر/ وغيرها الكثير.

لقد أصبح الحجر رمزاً... وكان التمجيد له... هذا الرمز يطغى على الإنسان الذي يحمله...

يقول إبراهيم ياسين في قصيدة الحجر:

"قفوا" ولا يتوقفون

"قفوا" ولا يتراجعون

ولا على الدرب استراحوا

حجر.. وتشتد الرياح

حجر.. وتخضر الجراح

حجر.. ومن ليل الرماد المر ينبثق الصباح

ويجن بالضوء القمر

حجر وتنتحر الهياكل والصور

(الاتحاد: 88/8/28)

وفي قصيدة بعنوان عندما ينطق الحجر يقول الشاعر محمد إسماعيل الأبارة:

"أيها الحجر الطفولة والرجولة

أيها الحجر القضية والوصية

أيها الحجر القضاء

الآن عصرك

فانفجر فينا كبركان القيامة

هدّ فينا كل ما فينا

وشيّدنا جديداً

الان فجرك فاكتسح ظلماتنا يا فجر واغمرنا

وفينا بدر الخوف الملازم".

الاتحاد: 88/8/28

إن تمجيد الحجر وعلى الرغم من رمزيته، طغى على الإنسان فالحجر ليس هو البطولة.. لأن البطولة تكمن في الإنسان الذي يحمل الحجر ويواجه الأعداء.. ولذا هل لنا أن ننتظر أن يكون البطل هو الإنسان والمجد للإنسان بدلاً من الحجر.

ثانياً: تمجيد بطولة الأطفال:

لا شك أن أطفال فلسطين يلعبون دوراً في الانتفاضة لم يشهد له التاريخ مثيلاً في مقاومة المحتلين، ولذا فالأطفال الذين يحملون البراءة يحملون أيضاً عناصر البطولة والتضحية والمثال الذي يقتدى.

يقول طه عبدالغني مصطفى:

"أشعل النيران يا جندي

هذا العصر، يا طفل الحجارة

كم عظيم أنت

تفعل كل هذا يا بطل!

كم تشجعنا، تحمسنا

رقيقات الجمل!

همة الأطفال حادينا

بين الليل، ذي الدرب الطويل

إنها أنشودة الأبطال، لا الأطفال في هذا الزمان

أنظرونا، يا جناب الصولجان قد هزمنا المستحيل".

الخليج: 1988/6/2

وفي قصيدة "إنه يحيى" يقدم لنا سعدي يوسف صورة ليحيى الذي يجسد كل الثائرين ويصبح اسم يحيى له دلالات على الانتصار يحيى هذا يمثل العطاء والتضحية.

"يحيى ينبت الأحجار

يجعل من سواعدنا تعاليم النبوة.

من أصابعنا دم الثوار.

رايات يحيى - ثوبك المنخوب الطلقات

يحيى في الشوارع

درعه كوفية رقطاء

وتبته براق أزرق

وسماؤه صفراء

يا لفح الفتوة"

(الاتحاد: 1988/4/24)

ثالثاً: إدانة الموقف العربي:

أخذ الشعر العربي موقفاً مديناً للمواقف الصامتة أو الخجولة من دعم الانتفاضة، وأدان الشعر كذلك الوضع العربي في صورة التمزق والوهن الذي جعل المدافع العربية لا تجيد لغة سوى لغة الصمت يقول صوت من الأصوات الجديدة:

"قم للعروبة واسمح دمعة العتب

فالليل خيّم فوق القدس والنقب

يا ابن الوليد خسرناها معاركنا

واجتاح أمتنا سيل من النوب

صهيون أمعن في تمزيقها إربا

وامتد ساعده في أمة العرب

أين المدافع كالإعصار نطلقها

أين البنادق تذكر ثورة الغضب" **(الخليج: 1988/5/30)**

ويكتب الشاعر الكويتي عبدالرحمن النجار مدينا الصمت العربي في قصيدة شعبية:

"في الكتابات الحديثة للعرب

في التوراريخ الجديدة للعرب

صفحات في أحلى الطرب

قعدات في شرب العنب

وسيوف لكن من حطب

شنها السبب!

كل السبب يا للعجب

ممنوع تفجير الغضب"

(القبس: 1987/12/22)

وفي قصيدة للشاعر العراقي حاتم الصكر يدين فيها الوضع العربي ويفسح كوّة من الأمل يصنعها لنا الأطفال في الوطن:

كان الرهان على قبائل بائدات

وعلى كلام أعوج الكنات - يقص

في غيوم كاذبات

كلما مرت سألنا:

أين وعد الماء؟

جازتنا

وراحت لسماء الآخرين

ورمتنا بهجاء

كان الرهان على خيول باركات في الظلام

في براري الخوف...

غطاها الكلام

فاستجابت بصغير وحجارة

ثم غطت.. وهي تستجدي السماء!

يا صغار الوطن الواقف كالسيف

طويلاً

ورهيفاً

اسمعونا لغة أخرى.. خذونا

قمراً يمشي على الأرض

وكفاً ورغيفاً

أرسموا فوق خراب القهر فجراً

شارة النصر

وكونوا

برقنا الآتي: رسولاً للمطر

فالرهان اليوم في قبضة طفل..

صاح: لا

وهو يعلي.. مجدنا

مجد الحجر.

(الاتحاد: 1988/3/10)

وفي نفس التوجه ينطلق د. مانع العتيبة مدينا الواقع العربي ويستبشر خيراً بالنهوض في الأرض المحتلة الذي يصنع أملاً جديداً بعد يأس ألم بالإنسان العربي

يقول الشاعر:

ماذا تقول صبية شقوا لها ثوباً فأعطاها الفداء إزاره

نادت صلاح الدين فاشتدت بها جدران بيت المقدس المنهارة

لكن صلاح الدين مات وما له فينا وريث حمية وإمارة

والله ما شئت استشارة نخوة فيكم فما للميتين إثارة

لكنني وأنا أرى أملاً خبا قد عاد يشعل في السواعد ناره

ارتد عن ظلمات يأسي خارقاً بحجارة الغضب الوليد حصاره

هي ذي بداية رحلة قدسية في لجج بحر ما خشيت غماره

(الاتحاد: 1988/12/11)

وفي لغة قاسية يقوم الشاعر أحمد مطر بتوجيه نقده القاسي للواقع العربي وليجعل من الانتفاضة هي الضمير الحي في وجودنا الميت يقول في قصيدته المعنونة طلب انتماء للعصر الحجري:

"أهل الضفة

أنتم روح اللّه

وأنتم موجز كل المخلوقات

أنتم أحياء أحياء

والناس جميعاً أموات

لا تنتظروا منا أحداً

لا تثقوا في أحد منا أبداً

نحن وجوه فقدت ماء الوجه

ونحن وجود ضيع أوراق الإثبات
نحن شعوب الزنزانات الكبرى
وجيوش الاستعراضات
.....
نحن شعوب ديكورات
وجيوش فاسدة اللحم
وليست تصلح للتصدير
وبلاد وحدتها لغز
ضاق بها عقل التفسير
وحكومات محكومات
مهنتها تحرير الأرض من التحرير
لا تنتظروا منا أحداً.
لن نأتي لن نأتي أبداً
ما عدنا غير نفايات تكره رائحة التطهير".

(الاتحاد: 1988/12/11)

رابعاً: التعبير عن الأمل والتحرير:

حينما تصبح الأيدي المقاتلة هي الأمل فإنها تحمل معها رايات الكرامة للإنسان العربي الذي أدمن الاستسلام للهزائم ... ولذا فإن الانتفاضة تأتي لتطرد روح الأمل عند الإنسان العربي... ويصبح اشتهاء مشاركة الشارع العربي للانتفاضة لدى الشاعر إبراهيم نصر الله هو اشتهاء لتحقيق شروط الانتصار، ولذا فإن هذا الاشتهاد هو تعبير عن أمل يتجاوز الواقع الذي نعيشه كي نعيش في مستوى الانتفاضة وعطائها يقول الشاعر:

"تشهيت أن يسقط الخوف فينا
ويغسلنا من زنازيننا
مطر أو قمر
تشهيت خيلاً من الريح تعبر هذي العروق
وتكنس هذا الفراغ المعرش...
في كل شيء.. وهذا الحذر
تشهيت حتى عبرت البلاد من الماء للماء
أبحث في دمنا ثم أهذي

أرى ما أرى من موات

طحالب تجتاح راياتنا

وتمني بنادقنا المفرغات بيوم الظفر

تشهيت يوماً تكون الشوارع فيه ولو ساعة للبشر

وأن يبدأ الآن عرس - على أعين المخبرين -

ونعلن ملء دم عربي بأنا هنا سنزف الحجر)

الخليج: 1988/5/25

وتعبر د. سعاد الصباح عن الدور الذي تقوم بـه الانتفاضـة بأمـل كبيـر وتفـاؤل أكبـر حـين تعتبر أن أيدي فتيان الانتفاضة هي التي تصنع فجر التحرير.

"ها هي الأخبار تأتي كالفراشات

خبراً بعد خبر. حجراً بعد حجر.

فعلى أجفاننا قمح ودفلى وورود

ها هم أولادنا

يصنعون الشمس في أكياسهم

يبدعون الزمن الآتي.. يصيدون الرعود

ويثورون على ميراث عاد وثمود

ها هم أكبادنا

يقتلون الزمن العبري

يرمون الوصايا العشر للنار

ويلغون أساطير اليهود

****

قاومي أيتها الأيدي الجميلة

قاومي أيتها الأيدي التي بللها ماء الطفولة

لا تبالي أبداً بأكاذيب الطفولة

لم نحرر نحن شبراً من فلسطين

ولكن. حررتها هذه الأيدي الرسوله"

(الاتحاد: 1988/12/11)

لقد صور الشعراء انتفاضة أهلنا في الأرض المحتلة وهي تقدم الشهداء في سبيل حرية الوطن بأنها تفرش درب الانتصار. يقول الشاعر أحمد معطي في قصيدته المعنونة "من هؤلاء"؟:

من هؤلاء؟
القادمون من الدجى
الحاملون مشاعل الحرية
وحجارة الأرض الأبية؟!
أهموا جنود يزحفون إلى الفخار؟!
ليقاتلوا جيش التتار؟!
ويهشموا وجه الحصار
أهموا ملائكة العذاب؟!
هطلوا مع الأمطار من عين السحاب؟!
أطفالنا هم ... بالحجارة والغضب؟!
هتفوا فرادى.. يا ردى
ومضوا سيوفاً لامعات في المدى
أما الصدى
فلقد تسلق هامة الدنيا وأعلن:
إننا شعب حجارتنا بنادق
وضلوعنا حفرت
خنادق
وزنودنا ارتفعت بيادق
ودماؤنا درب انتصار **القبس: 1988/1/5**

* * *

كلمة أخيرة:

لا شك أن الانتفاضة فرضت نفسها على حياتنا، ولعله أعظم ما حققته من إنجازات هي إعادة الثقة إلى الإنسان العربي بنفسه إعادة الثقة بقدرته على مواجهة مغتصبيه ومضطهديه وقامعيه ... وإعادة الثقة بشخصيته المبدعة التي يمكن أن تفجر طاقات من الإبداع في مواجهة التحديات...

ولعل من الإنجازات الهامة عودة القضية الفلسطينية إلى موقعها الطبيعي من حيث الأهمية والصدارة عالمياً وعربياً..

لقد أعادت المقاومة البطولية لشعبنا العربي الروح إلى شعبنا في منافيه وإلى الجماهير العربية على امتداد الوطن العربي منحته روحاً جديدة تشعر بالفخار للانتماء إلى هؤلاء الأبطال الذين يواجهون الدبابات بصدورهم العارية ولقد تبلور هذا من خلال انفعالات وتفاعلات لا يمكن رصدها بسهولة على كافة المستويات السياسية والثقافية والفكرية...

ولكن يمكن من خلال قراءة أولى الأدبيات الانتفاضة فكراً أو سياسة وأعمالاً فنية ونتاجات أدبية.. أن تلمح من خلال ذلك شمول تأثيرها على الحياة العربية.

وفي مجال الأدب على وجه الخصوص تبرز لنا أسماء الشعراء من الخليج العربي حتى المحيط الذين يكتبون شعراً موضوعة الانتفاضة.. وهؤلاء الشعراء ليسوا فقط من مختلف أقطار الوطن العربي فحسب، بل هم أيضاً من أجيال مختلفة. وهذا يعزز عمق تأثير الانتفاضة على الوجدان العربي.

ولا شك أن دراسة الأدب وعلاقته بالانتفاضة هو موضوع أكبر من أن يعرض في محاضرة، وموضوع يحتاج إلى المزيد من الدراسات التحليلية الشاملة والعميقة.

وألتمس العذر فيما عرضته هنا لأنه ليس إلا قراءة أولى - في عجالة - فرضتها ظروف المحاضرة والتي لم تتسع إلى دراسة أشكال الفن الجميل الذي يقدم لنا صورة لأشكال القمع الإسرائيلي وبطولة شعبنا.. مثل اللوحة الجميلة التالية لصخر أبو نزار بعنوان (اعتراف)

قالوا اعترف

وأنهد سقف الصومعة

ورأى الفتى دون الكرامة مصرعه

صرخت هراوات المحقق

اعترف

واختر لتنجو واحداً من أربعة.